شخصية العدد

عبد الحفيظ الخنقي الجزائري

"صفحات مشرقة من حياته، جهاده وآثاره"

عبد الحفيظ الخنقي

"صفحات مشرقة من حياته ، جهاده وآثاره"

أ . محمد الطاهر علاوي

نسبة، ومولده، وتعلّمه:

هو الإمام الصوفي، الزاهد، العارف بالله: الشيخ عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد الخنقي، الإدريسي الهجرسي، العامري، الونجلي، ينتسب إلى أسرة عريقة في الفضل، والشرف، يرجع نسبها إلى الأدارسة الفاتحين الأوائل للمغرب الأقصى، حيث نالت الحظوة والمكانة بفضل ما أنجبت من أعلام نبلاء وسادة فضلاء، ورجال علماء، وخير دليل على هذا، أنّ جدّه (السيد أحمد بن محمد حفظي) كان عالم رياضيات وفلك وتصوف.

استنادًا إلى أغلب المراجع التي أرخت لحياة الشيخ عبد الحفيظ الخنقي، فإنّها تتّفق فيما بينها على أن تاريخ مولده، كان حوالي سنة 1203 هـ/1789م، في **"خنقة سيدي ناجي"** الحاضرة الثقافية لمدينة بسكرة عروس الزيبان، تلك المدينة العريقة، التي تحتفي بتاريخ مجيد، وتزخر بتراث إسلامي عروبي عريق، يرجع إلى تاريخ قدوم القائد الإسلامي العظيم عقبة بن نافع إليها، واستشهاده في**"تهودة"** القريبة من بسكرة.

تلقّى الشيخ عبد الحفيظ الخنقي تعليمه الأول في زاوية جدّه، بخنقة سيدي ناجي، على يد كوكبة لامعة من الشيوخ و الأساتذة، كان في طليعتهم، الشيخ الصديق الونجلي، ثم شدّ الرحال طلبا للعلم، حتى تبحر في العلوم النقلية والعقلية .

تتلمذه على شيخ الشيوخ: سيدي محمد بن عزوز البرجي :

ما إن ارتقي الشيخ عبد الحفيظ في العلوم الإنسانية والدينية والمعارف

الأخرى، حتى بدأت ميولاته تتجه نحو التصوّف، فكان في لهفة وشوق إلى أخذ أصول الطريقة الصوفية على مرب عارف بالمسالك، إلى أن هيّأ الله الظروف الملائمة، فتعرّف إلى الشيخ الصوفي الجليل: سيدي محمد بن عزوز البرجي، وتلقى عليه أوراد الطريقة الرحمانية، كما تأثر كثيرا بتعاليمه الصوفية، ومنهاجه في التربية والسلوك، وعدّه شيخه الأكبر في الطريقة الخلوتية، وظهر ذلك حليّا من خلاله مؤلفاته، حتى قال عنه في وصيته:"... من قال: إنّ الشيخ ابن عزوز مات، أمات الله قلبه..."، وصرّح أنّ علومه ما هي" ... إلا نبذة من نبذ ابن عزوز..".

ولقد حظي الشيخ عبد الحفيظ الخنقي بمرافقة شيخه ابن عزوز في حجته الأخيرة، وبقي في خدمته حتى وفاته المنية سنة 1818م/1233هـ وكان عبد الحفيظ الخنقي من بين الخمسة المقدمين الذين أجازهم الشيخ ابن عزوز لنشر الطريقة وتأسيس الزوايا، وكان من جملة ما أظهره من حب ووفاء لشيخه، أنه تولىّ التدريس في زاويته بعد. وفاته، كما تبنّى تربية ولديه: المبروك[1] والتارزي.

1-هو الشيخ الزاهد، المبروك بن عزوز البرجي من أقطاب الطريقة الرحمانية، وواحد من أبرز رجالاتها، تربى في حجر والده الشيخ ابن عزوز، ونهل من معين العلوم الربانية وتمرّس على الرياضة الروحية، على يد الشيخ (عبد الحفيظ الخنقي) ولم يكتف الشيخ بالتحصيل، بل جدّ واجتهد، وشقّ على نفسه بصنوف المجاهدة، وضروب الرياضة، منغمسا في أسرار الكشف، والفيض الرباني، وما إن هبت رياح (المقاومة) حتى أنبرى الشيخ في أول الصفوف المجاهدة يشدّ من إزر أخيه (الحسن بن عزوز)، فيضرب الأمثال الرائعة في البطولات فتشهد له بذلك معركة (الزعاطشة) حيث كتب الله له أن ينجو من الموت المحقق ، وكأن الله أراد إبقاءه لأمر عظيم، لقد كانت رسالة الشيخ من أشرف الرسالات قدرا وأسناها ذكرا، حمل أعباءها وتحمّل أوزارها، فمضى يقيم الزوايا القرآنية، وينشر الطريقة (الرحمانية) على امتداد الصحراء، ثم شاءت الأقدار أن ينتهي به المطاف إلى بلدة (الأغواط) جنوب الجزائر ينزلها عزيزا مكرمًا، فيتعزّز شأنه، وتدرك منزلته، فيكون له فيها الأتباع والأنصار، وفي هذه المدينة كانت له المآثر الجليلة، والمواقف النبيلة، ثم تمسي تربتها حاضنة جثمانه المبارك، تضمّ ضريحه، وتحمي مقامه لغدو مقصد المريدين، ومزار المتعلقين إلى اليوم. توفي الشيخ المبروك،- رحمه الله تعالى- في الثلث الآخر في ليلة الجمعة، الثالث من شهر مارس ألف وتمانمائة وثمانون ميلادية 1888م

- ثم صاهر الأسرة العزوزية بأن زوّج اثنين من بناته إلى التارزي، [2] إثر وفاة إحداهن. كما أسّس الشيخ عبد الحفيظ الزاوية الحفيظية، نهاية القرن الثامن عشر، على الأرجح، وبداية القرن التاسع عشر الميلادي، فأكبّت عليها الوفود من كلّ حدب وصواب.

حياته الأسرية :

تزوج **الشيخ عبد الحفيظ الخنقي** من أربعة نسوة، الأولى: من قبيلة أولاد سيدي موسى، والثانية سرحانية والثالثة نوشية، والرابعة بسكرية (بوعصدية)، وله من الأبناء: سبعة ذكور، وسبع إناث، منهم الشيخ الحفناوي، الذي أشرف على زاوية توزر بتونس، والشيخ محمود، الذي طوّر زاوية ليانة،

2) - هو الإمام العارف الكبير، التارزي بين عزوز البرجي من العلماء الصالحين، والأتقياء العارفين، من أبناء الولي الصالح **الشيخ محمد بن عزوز البرجي**، وجاء في مقدمة كتابه الهواتف « وكان يقطع غالب الليل تهجّدًا بالقرآن العظيم وتفهما في معانيه وغوصا في غامض أسراره، لا يدع التهجد ولو في السفر والمرض، مستغرقا في الأذكار ممتلئا بالأسرار...». ولد ببلدة البرج سنة 1227هـ/1812م، تربى في حضن والده، وتلقى العلم على كبار مشايخ القرية والزاوية، ثم أخذ الطريقة الرحمانية على يد الشيخ عبد الحفيظ الخنقي، -تلميذ والده- وكانت له معه مراسلات عديدة. وقد التزم بسلوك هذه الطريقة حتى غدا من شيوخها الكبار، وبعد احتلال مدينة بسكرة هاجر رفقة عائلته إلى مدينة نفطة التي سبقه إليها أخوه الشيخ مصطفى بن عزوز البرجي، وذلك سنة 1262هـ. قضى معظم عمره في التدريس والإرشاد بزاوية الشيخ مصطفى بن عزوز البرجي بنفطة، وانتفع به الخلق منهم العالم الفقيه علي بن الحاج نصر النفطي والشيخ محمد المكي بن عزوز ... انتقل سنة 1310 هـ- 1892م بأغلب عائلته الطاهرة إلى بلاد الحجاز، وذلك بسبب رؤيا رآها، حيث رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام يأمره بالقدوم إلى المدينة والمجاورة هناك، وأخبره أن وفاته ستكون بها، فباع كل ما يملك، وذهب إلى الحجاز، وجاور بالمدينة المنورة إلى وفاته. كان شاعرًا مطبوعا وأديبا ماهرًا، نظم قصائد في مواضيع كثيرة، معظمها في تربية النفس وتهذيب الأخلاق، وله رسائل عدة في هذا الشأن منها: الهواتف، رسالة في مسألة إلهام الأولياء، قصائد عديدة في التصوف متداولة بين أتباع الطريقة الرحمانية ...توفي يوم السبت 07 ربيع الثاني سنة 1310هـ - 1892م، بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع تحت جدار قبة سيدنا عثمان بن عفان.. (أنظر ترجمته في مقدمة كتاب الهواتف التارزية- مخطوط، والترجمة التي خصه بها صديقنا الدكتور عبد المنعم القاسمي).

وأشرف على زاوية تونس، والشيخ الأزهري، الذي أشرف على زاوية الخنقة، ثم أنشأ زاوية خيران. ومن بناته السيدة الصالحة: صفية.

جهاده ضد الاحتلال الفرنسي:

إنّ صفحات التاريخ الجزائري، تحدثنا بلسان الفخر والاعتزاز ببطولات الشيخ عبد الحفيظ الخنقي الذي يعدّ من المجاهدين العظام، الذين لم يتخلّفوا عن صفوف القتال، ولم يتخاذلوا في نصرة وطنهم، ودحر أولئك الغزاة من أعداء الملّة والدين.

لقد حمل الشيخ سيدي عبد الحفيظ راية الجهاد خفاقة عالية ضد الاحتلال الفرنسي بجيش قوامه 5000 مجاهد، من خنفقة **سيدي ناجي** وششار، والأوراس، والتحق به **الشيخ الصادق بلحاج، والشيخ محمد الصغير** لفكّ الحصار على مدينة بسكرة، ودعم مقاومة الزعاطشة. ودارت معركة قرب سريانة ، في مكان مكشوف، على ضفة "وادي أبراز" [3]، شمال سيدي عقبة، وقتل في المعركة قائد القوات الفرنسية سان جارمان (Saint-Germain) في 29 أوت 1849م، وكانت المعركة غير متكافئة.

حسب الضابط سيروكا، فقد جرت المعركة على الضفة اليسرى لمجرى "وادي أبراز"، حيث تمركزت قوات المقاومة وخيّالتها على الجهة اليمنى للوادي، وتناور بالحركة بين واحة سريانة، وجبل "أحمر خدو " عند الأوراس.

3) - وادي أبراز : مجرى مائي ينبع من جبال الأوراس ، وبالتحديد من قمم شيليا وهو أحد فروع الوادي الأبيض، ومن أكبر مجاريه، حيث يعبر قبيلة أولاد دواد التوابة ، متخذا من المنحدرات والانكسارات التي أحدثها في مضايق تيغانمين مجرى له، قاطعا مرتفعات غسيرة ومشونش، حتى يضيق عند مصب فم الغرزة، حيث منخفض الصحراء، فيسقي القرى والمداشر والواحات، بالمنخفض السفلي للزاب، كعين ناقة، وقرطة وسريانة وتهودة، وسيدي عقبة ، حتى يصل أراضي ابن شنوف،والمنصورة، بالزاب الشرقي

استجاب **الشيخ عبد الحفيظ** لنداء استنفارللجهاد، الذي وجهه الشيخ بوزيان (**شيخ واحات الزعاطشة**)، خاصة بعد الانتصار الأول للزعاطشة، الذي بث روح الحماس والجهاد لتحرير المنطقة من المحتل، ولقد أهّلت المكانة الروحية المرموقة التي حظي بها **الشيخ عبد الحفيظ الخنقي**، لأن يكون زعيما روحيًا يلتفّ حوله المريدون، وليتقدم جحافل الأبطال، إلى أن ينال شرف الشهادة في هذه المعركة الحاسمة، معركة "وادي أبراز".

لقد نسّق **الشيخ مع الصادق بن الحاج، ومحمد الصغير بلحاج** لمواصلة الجهاد، واسترجاع بسكرة في اجتماع 4 نوفمبر 1849م، حيث جهّز كلّ من الزاب الشرقي، واحمر خدو ألف فارس، وخمسمائة أخرى قادمة من الجريد، وخمسين من وادي سوف، ولقد رفض الشيخ تقديم الولاء لفرنسا عند اقتراب حملة سانت أرنو Saint-Arnaud من الخنقة، وفضل الخروج إلى تونس في 01 جوان 1850م، حيث خرج من الخنقة إلى الجريد التونسي، إلى ناحية نفطة كي لا يتعرض للاعتقال.

وفاته:

يروي بعض الشيوخ أنّ **الشيخ سيدي عبد الحفيظ** جرح في المعركة، وعاد إلى خنقة سيدي ناجي، وتنقل إلى تونس[4] " ثم عاد إلى خنقة سيدي ناجي، ليوحّد صفوف الإخوان من جديد، لكن الوقت لم يكن في صالحه، فوصلت

4) - ذكر لي الأستاذ الفاضل، سعد السعود شخاب، نقلا عن شيوخ المنطقة بتواتر، أن الشيخ عبد الحفيظ الخنقي، لما تنقل إلى زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز ببلدة"نفطة" بتونس خوفا من الاعتقال قصّ عليه الشيخ مصطفى بن عزوز، رؤيا عظيمة رآها، وقال له : «إني رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، في المنام، وقال لي: قل لعبد الحفيظ، ستموت في بيتك، وفي سجادك» فكانت هذه الرؤيا حافزا في عودة الشيخ عبد الحفظ إلى "خنقة سيدي ناجي" .وعلم أن الغزاة الفرنسيين، لن يصلوا إليه، وقد لقي وجه الله الكريم- كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم- في بيته، وهو ساجد بين يديه، رضي الله تعالى عنه، وأسكنه فسيح جناته، مع النبيين والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقا.

قوات الاحتلال إلى خنقة سيدي ناجي، وحـاصروا الشيخ، ويضعن الشيخ إلى الأمر الواقع، فطلب من قائدهم أن يصلي، فصل لله، وطلب في سجوده لقـــاءه، وكان يقول:"الرب طلب والكافر طلب، والغالب يأخذ".

وتوفي الشيخ- وهو ساجد- حسب الرواية المتداولة شفويا عن لالة خيرة- زوجته الرابعة البوعصدية وعاد الفرنسيون خائبين عام 1266هـ/1850م، ودفن خلف زاويته. ولا يزال ضريحه الطاهر مزارا تشعّ منه الأنوار والبركات وقبلة لكلّ العارفين بالله. ودفن معه في الضريح شاعره ابن الطاهر، وسيدي الطيب بن الحفناوي بن عبد الحفيظ.

مؤلفاتـه:

ترك الشيخ الجليل سيدي عبد الحفيظ الخنقي الكثير من المؤلفات، و إنْ كان الكثير منها في حكم المفقود، منها:

- غاية البـداية في حكم النهاية: وتسمّى أيضا : الحكم الحفظية: وهو مجموعة من الحكم في الزهـد والتصوف على مـنوال الحكم العطـائية، شرحه تلميذه الشيخ محمد المكي بن الصديق الخنقي، وطبع بتونس سنة 1314هـ/1896م.

- الفايق والدستور الرائق: وهو مجموع كتب ورسائل، طبع سنة 1315هـ/1897م، بالطبعة الرسمية بتونس، يشتمل هذا المجموع على ثلاثة عشر تأليفًا.

ومن أدعيته المباركة :

«... اللهمّ ألبسنا ثوبَ تقواك، و أفن منّا حبَّ دنياك، و قرب منَّا نزولَ أخراك، حتى تكون التقوى زادنا، والدنيا مرحلتنا، والآخرة موطن نزولنا . اللهمَّ

اجعل حياتنا في تقواك، ومماتنا في رضاك، وحبّب لنا لقياك. اللهمَّ اجعل نقلتنا من هذه الدار نقلة السالكين الأخيار، وانزلنا منزل السادة الأبرار. اللهم اختم لنا بخاتمة المقربين، وتولّ قبض أرواحنا بلطف منك وتلقين. واجمعنا بك في ذلك الموطن لنكون في فرقنا من الآمنين ويشهد مللك الموت وأعوانه لنا في ذلك بالتمكين، ويكون سبب حضوره لنزع أرواحنا امتثالا لأمرك، وزيادة تشريف وتأمين، وأنزلنا منزلاً مباركًا، وأنت خير المنزلين، يا أرحم الراحمين.. يا أرحم الراحمين.. يا أرحم الراحمين .. يا ربّ العالمين...»

من أدبه الصوفي :

من أدبه الصوفي الرفيع، قوله :

" .. ومن جملة عجائبه :أن يصير العرش كرسيه يجلس عليه، وحملة العرش أعوانه، يحملون الأثقال عليه حتى أنه يثقل هو عليهم، ولا يثقلهم العرش، لأنه هو: الكون كله عرشا وفرشا وزيادة، واللوح قلبه، والكرسي سرّه وأم الكتاب روحه، وتجليات الحق حركاته، والجبروت سكناته، وسطوات الحق هيبته، وجبريل إلهامه، وميكائيل ميزانه، وإسرافيل ريحه، وعزرائيل قهره، وجميع الملائكة ديوانه، والجن والإنس عسكره، وبرزخ الدنيا غيبته وبرزخ الآخرة حضوره، والحيوانات تعرفه، والنباتات تشرفه، وحضرة القدس مسكنه، والبيت المعمور غدوه ورواحه، والكعبة بصره، والأرض خطوته وأقصى المشرق لحظته، وأقصى المغرب خطوته، ودائرة الأولياء شهرته، والأخيار مشورته، والأقطاب عمدته، والأبدال سيفه، والأوتاد بهجته، والنقباء زينته والنجباء فتيته، والمغيبة سيرته، وعامة الخلق ثورته، وخاصتهم فورته، وغوثهم الجامع حضرته، ورسول الله(صلى الله عليه وسلم) خمرته"...

من وصاياه :

من وصاياه البليغة، قوله :

" .. أوصيكم ونفسي بتقوى الله العظيم، والإنابة إليه، والردّ لهفوات النفس عن هوائها العديم، وعدم الركون لخوضها الجريم، والمعـــالجة لأصعب دسيسة عذابها المليم, فإنَّ منْ نصحته، غدوته، ومن أصغى لنصحها أمكرته، ومن لاذ باضطـرار بها في الكلّ ، أعمت سريرته النوارتية، و استحوذته، ويصير بذلك في حكمها فأملكته، وهو في زعمه رافض مريض فأخذلته، وبسلاسل حور تدريجها قادته، ولو كان ليس فيه هذا ما شغلته عن طاعة معبوده، فأبعدته" .

المراجـع :

- **الحفناوي : محمد أبو القاسم :** تعريف الخلف برجـال السـلف ص 483 ، مطبعـة وتنانة الجزائر، 1906م.

-شرح الحكم المسماة: بغاية البداية في سر حكم النهاية , المطبعة الرسمية، تونس 1313هـ .

- **عبد الحفيظ الخنقي**، ودوره في المقـاومة الوطنية بالزاب الشرقي، وأحمر خدو 1849 م، الأستاذ **عباس كحول**.